

بين الأنواع وافترض وحدة في الثقافة العربية الكلاسيكية كيفما كانت الأنواع، نثرية أو شعرية، رفيعة الشأن أو ساقطة، واقعية أو أسطورية. بهذا المعنى يمكن القيام بدراسة موازية لأسرار البلاغة و كليلة ودمنة و ألف ليلة وليلة. إنني طبعاً لا أجهل الفروق بين الأنواع، لا أجهل أن الثريا بعيدة كل البعد عن سهل وأنهما لا يلتقيان أبداً. بيد أنني عند قراءة أسرار الجرجاني ألمح فيه عناصر قصة أصلية، عناصر مشتتة سأحاول جمعها ولمّها. وأعني بالقصة الأصلية قصة تتحدث عن الوجود بناء على مبادئ أسطورية (بالمعنى الإيجابي لكلمة أسطورة كما تبرزه الدراسات الحديثة).

يُنظر إلى أسرار البلاغة على أنه كتاب يتناول مسألة المجاز، وبالفعل فإنّ الجرجاني درس هذه المسألة بشتّى فنونها وأشكالها. إلا أن كلامه يتضمّن، إضافة إلى الخطاب البلاغي، خطابين آخرين. فمن جهة نلاحظ أنه عندما يتطرّق للتشبيه والتّمثيل والاستعارة، يستعمل بدوره التشبيه والتّمثيل والاستعارة. ومن جهة أخرى نلاحظ أنه يستشهد بقدر لا يستهان به من الأبيات الشعرية كأمثلة للقواعد البلاغية التي يرسبها. هذه الأبيات مقتبسة من قصائد لعدة شعراء ينتمون إلى عصور مختلفة؛ كل بيت يحشر في سياق جديد مع أبيات غريبة عنه، فيتلون معناه بمعنى جيرانه ويبدو في حلة تباين حلته المعهودة. بمجرد اللقاء مع أبيات أخرى، تضاف إليه دلالة وقيمة جديدتين. وهكذا فإنّه لا يؤدّي فقط الدور الذي من أجله سيق في الكتاب؛ إنّ دوره لا ينحصر في الإبانة عن قاعدة مجازية وإنجاز ما يرمي إليه البلاغي. ذلك أنه لم يوضع في الأصل من أجل البلاغة، وإنّما من أجل حاجة في نفس الشاعر، حاجة تفرض مقتضياتها في السياق الجديد.

ثلاثة خطابات تتواجد إذن في كتاب الجرجاني : الخطاب البلاغي المقتنّ لفنون المجاز، الخطاب المجازي المتكوّن من الاستعارات والتشبيهات التي يستخدمها المؤلف، الخطاب الشعري المركّب من الأبيات التي يتمّ استدعاءها في كلّ صفحة من صفحات الكتاب. عندما نأخذ هذه الخطابات بعين الاعتبار، عندما